عصفة جديدة

لم يكن امرؤ القيس قد رأى الطماح فى قسطنطينية قبل تلك الليلة التى رآه فيها فى الوليمة الكبرى بقصر الأمير حنا، وما كانت أشد دهشته عندما رآه! فقد كان يظن أنه سيرى رجلا لم يسبق له به عهد، فإن اسم الطماح لم يسبق إلى سمعه قبل ذلك، فكان يحسب أنه أحد بنى أسد الذين نزحوا إلى أرض الروم منذ أزمان طويلة وأقام فيما كبعض عمال الدولة أو بعض أتباع الجيش، فإذا به يرى رجلا من أعدائه الذين ثاروا بأبيه الملك حجر، وهو من أقرب أصحاب منافسه الكريه عبيد بن الأبرص وممن يمتون بالنسب إلى عدوه الفظيع علباء ابن الحارث الكاهلى قاتل أبيه؛ وهو فوق ذلك كله ممن أصابتهم دماء الحرب التى شنت على بنى أسد، فقد قتل امرؤ القيس أخاه فى بعض إغاراته فى طلب ثأر أبيه. ولم يكن الطماح اسمًا له، بل كان لقبًا لنفسه ليستخفى به، فإنه لم يكن سوى يزيد بن قيس الكاهلى الأسدى.

ومنذ عرف امرؤ القيس حقيقة ذلك الرجل داخلته حيرة شديدة فى معرفة العلة التى دفعت الأمير حنا إلى اختياره ليكون معه فى حربه، ولم يستطع أن يدرك كيف أتى الطماح إلى قسطنطينية، ولا أين أقام. إنه كان بغير شك مقيمًا فى عاصمة قيصر منذ حين،

ولكنه لم يره مرة واحدة من قبل، وساءل نفسه: أكان مستخفيًا عنه عن عمد أم كان ذلك عفوًا من غير قصد؟ وهل رضى حنا بصحبة هذا الرجل له أم كان مرغمًا عليه؟ ألا يكون قد أمر باستصحابه أمرًا؟ ألا يكون قيصر قد أراد ذلك، أو أن تكون امرأة قيصر قد تقدمت به إليه؟

ثم بدا له رأى غير كل ذلك. ألا يكون ذلك الرجل الأسدى قد جاء وراءه يتأثر خطاه لكى يعمل على إحباط أمره وخيبة مسعاه؟ ألا يكون قومه قد بعثوا به إلى مدينة قيصر لكى يتجسس عليه، ويرقب مبلغ نجاحه فى السعى عند قيصر، حتى إذا ما رأى أنه قد تهيأ له شىء من الفوز سعى فى إفساد تدبيره والكيد له؟

ما زالت هذه الخواطر تثور فى قلب امرئ القيس فى أثناء الوليمة الصاخبة التى أعدها حنا احتفالا بتمام أمره واستعداده للمسير بالجيش العرمرم إلى الشرق لغزو بلاد كسرى. ولكن تلك الخواطر لم تلهه عن التفكير فى صاحبه المسكين الذى لم تقع عنيه عليه بعد تلك الليلة التى ذهب فيها ليرى أمه فى قصرها على الشاطئ الآخر من البحر. فكانت صورته لا تزال تعاوده وتطل عليه من ثنايا أفكاره المضطربة، وكانت نشوة الخمر التى أقبل امرؤ القيس على شربها تزيد هذه الوساوس فى نفسه عنفًا، وهو كلما رآها مخيمة على عقله لجأ إلى كأس مترعة فعب منها، وحاول أن يجد فيها ما يدخل بعض النور إلى هذه الظلال، فلا يزداد بعد كل كأس إلا حزنًا وإظلامًا.

وفيما هو يعانـى آلام هذه الحال ويناضلها بوعيه الفاتر اقترب منه يزيد بن قيس (الطماح) وهو يبتسـم ابتسـامة خيل إليه أنها بسمة السـعلاة من الجن إذا اقتربت من فريسـتها؛ فأراد أن يضع يده على موضع سـيفه، وأن يهب واقفًا على قدميه للقائه كما يلقى الإنسـان عدوه، ولكن الخمر كانت قد تمشت فى مفاصله فأرختها، ولم يسـتطع حراكًا، وحاول أن يتكلم فخرجـت منه ألفاظ متعثرة مختلطـة فى نبـرة وانية فاترة لا تبين. وكان الطماح أملك لنفسـه وأحفظ لوعيه، فإنه لم يسرف فى الخمر كأنما قصد ذلك قصدًا لكى يملك عقله فى المحاورة.

قـال الطماح وقد جلس إلى جـوار امرئ القيس: «أراك لم ترتح لرؤيتى يا أبا وهب. ألا لقد مضى الزمان ونبتت المراعى على مواقع قتالنا».

وكان فى صوته وابتسـامته تهكم وسخرية لم يخفيا على امرئ القيس، ولكنه تكلف التماسك وأجاب فى لسان معوج: «وأين تركت قومك يا بن قيس؟ أما يزالون يهيمون فى القفر فزعًا؟».

وكان ينتظـر أن يرى أثر قوله فى الرجل من ثورة وغضب ولكنه لم ير شـيئًا من ذلك؛ فـإن الطماح لم يجبه، بل زادت ابتسـامته اتسـاعًا كأنمـا لم يسـمع منه إلا فكاهـة ومزاحًا، فزاد وسـواس امـرئ القيس اشـتدادًا، وأحـس بالغضب يتقد فى نفسـه اتقادًا، وخاطبه بعد حين فى لهجة أشـد قسوة واعتداء، وكان يعلى صوته

فى مد ومط من أثر السكر؛ ويقطع حديثه بالضحكات الصارخة الوانية فقال: «أراك جئت إلى قيصر؛ لعلهم بعثوك إليه تطلب حمايته لهم ليأمنوا من فزعهم؟ أين المنذر؟ أين تركت المنذر؟ لعله رفسكم رفسة دهدهتكم بعد أن رأى ما رأى منكم! ها ها. أين عمرو بن مسعود؟ لقد سمعت أن المنذر قتله. ها ها. لقد سمعت أن المنذر أوقع به. وأسفاه عليه! لقد كنت أمنى نفسى بضرب عنقه بيدى. ها ها ها».

ولم يستطع يزيد بن قيس أن يملك نفسه أمام هذه العاصفة، فاختفت ابتسامته وعلا الدم إلى وجهه، وقام غاضبًا ينظر إلى امرئ القيس كأنه يريد أن يقاتله، فارتاح امرؤ القيس إلى رؤية ما ظهر عليه من الغضب، ونظر إليه ضاحكًا واستمر قائلًا: «ولكن المنذر إذا مضى فى قتل بنى أسد لم يترك لى منهم أحدًا. ها ها ها؛ اذهب فاحمل رسالتى إليه. ها ها ها. قل له يدع البقية رهنًا لتكون للغالب منا يقتلها متى انتصر. قل له إنى سائر إليه بعد قليل».

فانتفض يزيد وقال؛ وهو يحاول أن يمسك ما بقى من صبره: «إنك إنما تسير فى جند قيصر لبعض حروب قيصر كما نسير نحن».

فدب الغضب إلى امرىء القيس وقال وقد زالت ابتسامته: «كذبت بل أسير كما يسير الملوك. سأذهب إليكم فى جند من أمثالى أبناء الملوك. أبناء الملوك. أتسمع؟ وسيكون معى بعد حين قصير صديقى عمرو بن قمية، عمرو بن قمية. أتسمع؟».

فنظر الطماح إليه فى خبث وقال فى لهجة استخفاف: «عمرو بن قمية؟ نعم ذلك الفزارى الشريد».

فزاد غضب امرئ القيس وصاح مجيبًا: «كذبت! بل هو ابن تيودورا. أتسمع؟ ابن الملكة تيودورا. سنسير معًا كما يسير أبناء الملوك أيها العبد».

وما كاد الطماح يسمع هذا القول حتى رأى فيه فرصته، فتكلف العودة إلى الهدوء، وضحك ضحكة عالية، وقال فى صيحة ساخرة: «عمرو بن قمية؟ عمرو ابن الملكة؟ يا لها من فكاهة! لقد سكرت سكرًا شديدًا يا أبا وهب».

فقال إليه امرؤ القيس غاضبًا هائجًا، وقال وهو يقترب منه مترنحًا: «أتسخر منى؟ اخرس أيها الأسدى الوضيع! نعم سأذهب مع صاحبى عمرو كما يسير أبناء الملوك. إنه الآن عند أمه، إنه اليوم عندها فى قصرها، ولكنه سيلحق بى إذا سرت، وسيعرف قومك عبيد العصا طعم السيف عن قريب».

فقام يزيد (الطماح) واقفًا فى وجهه وقال وهو يحاول كتمان ثورته: «سأحدثك إذا أفقت من سكرك يا جندح؛ أما طعم السيف فقد ذاقه أبوك حجر ابن أم قطام».

وكانت هذه الكلمة أكبر من أن يقدر امرؤ القيس على تحملها فى سكره، فأسرع إلى يزيد فلطمه بيده قبل أن يستطيع ردها عن نفسه، وأراد أن يرتد إلى الوراء ليجرد سيفه لقتاله،

ولم يبال شيئًا مما حوله، ونسى أنه فى وليمة عظيمة تجمع أشراف الروم وسراتهم وقوادهم، ولكنه لم يستطع أن يحفظ اتزانه فى ارتداده إلى الوراء، فسقط إلى الأرض وهو يصيح ويهدد ويشتم، والطماح واقف إلى جواره ينظر إليه فى حقد وخبث. واسترعت هذه الحركة العنيفة من كان قريبًا منهما من القوم، فأسرع بعضهم إليهما وهم يترنحون فى سكرهم حتى بلغوا مكانهما، وأسرعوا إلى امرىء القيس فرفعوه عن الأرض، وجعلوا يعيدون عليه ثيابه ويصلحون من هيئته، وهو لا يزال يسب ويعيد ألفاظه متلعثمًا يقطع كلماته بالفواق والتعثر، ثم أجلسوه فى مكان، وجعلوا يهدئون من ثورته، فارتمى على أريكة وقد اجتمع عليه أثر الخمر وأثر ثورته، فمال على ظهر الأريكة فى غيبوبة تامة. والتفت الحاضرون إلى الطماح فى شىء من الإنكار ونظراتهم تنطق بالاتهام واللوم، فأراد أن يدافع عن نفسه، فأخذ يقص عليهم قصة ما قاله امرؤ القيس له وما سبه به، حتى بلغ ذكر عمرو بن قمية وقول امرئ القيس إنه ابن الملكة، وإنه مقيم عندها فى قصرها، فما كادوا يسمعون ذلك حتى ذعروا ونظر بعضهم إلى البعض كأنما قد وقعت صاعقة على مقربة منهم.

وأسرع واحد من القوم إلى حنا وكان صديقًا له، فأفضى إليه بما يدور فى مجلس القوم فى عقر داره وتحت سقفه، وأنذره بأن هذه الأقوال موشكة بغير ريب أن تبلغ الملكة، ويا لهول ما يتوقع من الملكة إذا سمعتها!

ومـا كاد حنا يسـمع قـول صديقه حتـى غلبتـه صيحة نمت عما داخله من الفزع والسـخط، وأشـار إلى وجهه وصدره وبعلامة الصليب وقال: «حقًا إنه لفتى مشئوم».

وسار مسرعًا نحو الجمع المحيط بامرئ القيس وارتسم الدم على وجهه الصارم فلما رآه على الأريكة لا يعى، صاح فى شـبه صرخة اليائس: «أيها المشئوم! أيها المشئوم! هكذا خبرنى كل من عرفك. أوَيوشك شؤمك أن يحل بدارى؟».

* * *

أفسـدت هذه الحادثة نشـاط اللاهين وعبث الماجنين. فلم يطل السهر إلا إلى منتصف الليل، وبدأ الجمع ينفض بعد قليل... وأخذ القوم ينصرفون أفرادًا إلى بيوتهم، بين فارس على فرسـه المطهم فـى عدته الذهبية وبيـن أمير فى عربته العاليـة تجرها الخيول القويـة تضـرب الأرض بحوافرها فتنزع قطـع الطريق وتحفر فيه أخاديد عميقة، وسـار يزيد الطماح مع الأمير (تريبون) إلى قصره القائم على البوسـفور، فدخلا إلى غرفة فسـيحة فى أقصى القصر تطل على صخرة عالية من صخور الشاطئ، وجعلا يتذاكران ما كان من الحديث فى بيت الأمير حنا، وهما فى مرح ونشـاط واستبشار. قال (تريبون) وهو يفرك يديه مبتسـمًا: «إذًا لقد عرفت سبب تلك الحُظوة الطارئة التى نالها حنا».

فأسرع يزيد يجيب فى يونانية صافية: «ولكنها كلمعة البرق. تقبل سريعة وتختفى سريعة».

فضحك (تريبون) معجبًا بخيال العربى وقال: «ولكن أتظن حنا يعجز عن تدارك هذا الأمر؟».

فصمت يزيد ونظر إلى الأمير ينتظر ما يتم به قوله، فعاد (تريبون) إلى الحديث فى تفكير وخشية فقال: «لن تمضى عليه هذه الليلة بغير أن يكون قد دبر حيلة جديدة ليقابل بها موقفه الجديد، سيدبر مؤامرة من مؤامراته. سيفكر فى وسيلة شيطانية من وسائلة لمقابلة الملكة قبل أن تقابله إذا أعجزه أن يستميلها بتضحية جديدة. سيقاومها بسلاح لا يخطر لأحد ببال».

فقال يزيد: «ولكن المقادير قد مهدت السبيل أمامنا على غير انتظار».

فأجاب تريبون مسلمًا: «حقاً إنها قد مهدت سبيلنا».فلقد كنا فى حيرة لا ندرى كيف نجد الثملة التى نصل منها إليه.

فقال يزيد فى سرور ظاهر: «ولن تفيده حيلته هذه المرة. لقد صار الأمر بينه وبين الملكة».

وصمت لحظة وهو يبتسم ناظرًا إلى (تريبون).

فغمز تريبون نحوه بعينه ضاحكًا فى خبث، وقال فى صوت هامس: «نعم والويل له! ويل لمن تقف فى وجهه تيودورا متنمرة».

وصمت لحظة أخرى، ثم عاد يفرك يديه مسرورًا وقال: «لا بد للملكة أن تبادر بحركتها. وإلا....» وطقطق بأصبعيه عند ذلك، ولم يتم كلامه.

فأطرق الطماح لحظة، ثم قال فى تردد: «ولكن هل تصل هذه الأقوال إلى الملكة فى الوقت الملائم؟».

فهز (تريبون) رأسه رافعًا حاجبيه كأنه يريد أن يقول: «إنى واثق من ذلك».

وبعد لحظة قصيرة قال: «ولكن لابد لنا من أن نقوم نحن بإيصال أخبار هذه الليلة إلى الملكة. إننى لا أشك فى أنها قد عملت بما كان، فكل من كان حاضرًا قد أسرع فبعث إليها بما سمع. هذا أمر لا شك فيه. ولكنا نحن أيضًا يجب أن نظهر إخلاصنا. سأذهب الليلة بنفسى إلى القصر لأقابلها وأحدثها بما سمعت كأننى لا أعرف أن الخبر قد بلغها. سأذهب إذا هدأت الأصوات بعد قليل».

لم يسبق للأمير (تريبون) أن رأى الملكة فى اضطراب مثل اضطرابها تلك الليلة عندما كان يلقى إليها ما سمع من حديث امرئ القيس فى منزل الأمير حنا. لقد عهدها تستطيع أن تخفى غضبها ومخاوفها تحت ابتسامة هادئة؛ ولكنها كانت عند ما لقيها تلك الليلة امرأة ضعيفة تلتمس المعونة وتتذلل وتتودد وتبذل.

لقد عرف (تريبون) عندما لقيها أنها تبذل كل شىء فى سبيل إخماد تلك الأصوات التى ترددت فى وليمة الأمير حنا، وأن انتقامها سيكون عظيمًا من ذلك العربى الذى كان يعرف سرها، ومن الرجل الذى أظله فى منزله.

أمـا الأمير حنا فإنه لما صار وحده بعـد انصراف القوم مد يده وهم أن يخترط سـيفه، فيضرب ذلك العربى المشـئوم الذى يوشك أن يجـر عليه مصائب كان قد ظن نفسـه أمن منها، ولكنه أمسـك وأعاد يده عن مقبض السـيف، وخطرت له خاطرة من رأى جديد، فإنه يسـتطيع أن يبذل للملكة ذلك الشاب ضحية جديدة إذا أرادت مسـالمته، فإذا لم ترد مسالمة كان إسراعه إلى قتله تضييعًا لسلاح قد يكون له خطره إذا ما عزم على النضال المر مع الملكة المتنمرة.

صحـا امرؤ القيس فى اليوم التالى من تلك الليلة العاصفة، ليلة الوليمة التى شـهدها قصـر الأمير حنا، على اضطراب شـديد هز أنحـاء القصر، فحراس مـن جنود قيصر تحيـط بالقصر فى جلبة وعجيـج، وآخرون منهـم يدخلون إلى فنائـه وأبهائه يعبثون فى أثاثـه، ويسـتبيحون حرماته، باحثين فى الخبايـا والخزائن فى عنف وعبث، ولم يسـتطيع حـراس القصر ولا خدمـه أن يقاوموا أو يمانعوا، فلم يكن رومانى ليجرؤ على عصيان أمر قيصر العظيم، وقـد أمر قيصر بالقبض على الأميـر حنا بعد أن بلغته أنباء مؤكدة عـن خيانته له وتآمره عليه. وأخذ امرؤ القيس فيمن أخذ من أتباع الأمير لكى يعرض على قيصر ليرى فيه أمره.

لقـد كانـت عصفة جديدة مـن عصفات الأقدار بامـرئ القيس. تلك الأقـدار التـى ما تركـت له متنفسًـا فـى الأرض، وما زالت تتعقبه حيثما سـار، تمهله فى كل حين، فيوشك أن يبلغ مأربه،

حتى إذا ما حسب أنه قدر عليه، وظن أنه قد كاد يدرك مؤمله، نزعته منه نزعة قاسية وطرحته إلى حيث يعجز عنه، ويبقى ماثلًا أمام عينيه يملؤه حسرة ولوعة.

لقد تمثل له عند ذلك صدق قول أصحابه إذ وصفوه بالشؤم وإذ أزعجهم منه ما يجره دائمًا على من يحل بينهم من الشقاء، وذكر كلمة الأمير حنا فى الليلة البارحة كأنه يذكر حلمًا مبهمًا بعيدًا، إذ ناداه فى صرخته اليائسة يقول له: «أيها المشئوم».

وبقى فى قصر الإمبراطور أيامًا فى عزلة تشبه السجن، لا يصل إليه أحد إلا بعض حراس يحملون إليه طعامه أو يقومون بخدمته فيما يطلب إليهم أن يؤدوه، مما لا يعدو مطالب الحياة وضروراتها، ولكنه بقى فى حيرة لا يدرى من أخبار تلك العصفة الجديدة شيئًا ولا يعرف من مصيره فيها أمرًا، وما كان أطولها من أيام ألحت عليه فيها المخاوف والهموم، وأحاطت به جيوش من الأوهام والذكريات لا تدع له راحة ولا سلامًا، حتى أتى إليه الحارس يومًا، فأشار إليه فى صمت أن يتبعه. فقام وهو لا يدرى ما هيأت له المقادير، وسار وراء الرجل وهو يسائل نفسه أإلى أجله يسير؟ أم إلى فرجة وخلاص؟ فأدخل إلى بهو فسيح يشبه البهو الذى استقبله فيه الأمير حنا عند أول مقدمه إلى المدينة مع صديقه عمرو. ولم يلهه ما هو فيه من خوف وهمٍّ عن تذكر ذلك الصديق المسكين الذى لم يره منذ فارقه لرؤية أمه، ولم يملك عندما خطرت

صـورة عمرو فى ذهنه أن امتلأ قلبه غيظًا وحقدًا على تلك العاصمة الفسـيحة المزدحمة القاسـية، وما فيها من أسـرار رهيبة وطباق مظلمة.

وتقدم يسير وراء الحارس فى ذلك البهو العظيم حتى بلغ أقصاه فـإذا به يـرى عن يمينه حنية تتلألأ بما عليهـا من نقوش الذهب ومـا تحتها من الأثاث البديع والتحـف الثمينة؛ وطلع عليه منها فجأة، كما يطلع شـبح الراصد مـن وراء الثنية، رجل طويل القامة ينظر إليه بعينيه الزرقاوين الثابتتين، وعليه ثوب أرجوانى اللون غطتـه نقوش الذهب وتألقت عليه الجواهرالوضاءة، فعرف أنه فى حضرة قيصر.

* * *